المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 07-10-2007
الصفحـات : 18
العـــدد : 14349
المسلسل : 139

لبنان والديموقراطية

منح الصلح

قد يكون النظام اللبناني لم يفد من بعض الوجوه اللبنانيين أنفسهم، ولكنه بالنسبة للعرب، شعوباً وحركات تحرير ودولاً وخصوصاً القضية الفلسطينية نفسها، فقد كان لبنان الساحة والمختبر والصوت، لا بل العضل أيضاً لهذه القضية. وقد أفادها ولكن هل أفاد نفسه؟ بل هل استطاع أن يجمع على موقف واحد في هذا الشأن؟

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 07-10-2007 العـــدد : 14349
الصفحـات : 18 المسلسل : 139

= ما من زمن في تاريخ لبنان منذ أن كانت له دولة تراجعت فيه عوامل الجمع لحساب تقدم عوامل الفرقة كما نشهد هذه الايام. فمنذ فترة غير قصيرة وكل ما هو جمعي بين اللبنانيين في سكون أو في تأخر، بينما كل ما هو تفريقي في تحرك، وكأن لبنان تحمّل وحده ويتحمّل قبل الجميع كلفة قيام إسرائيل في المنطقة. وهو يدفع ثمن هذا الجوار، بل هذا العدوان بقرار مواجهته عند بعض أهله، أو «حكمة» مسالمته عند آخرين. وصحيح أنه ما من وطن عربي إلا طاله الوجود الصهيوني بالأذى حتى ولو لم يكن ذلك ظاهراً للعيان، إلا أن الاذى اللاحق بلبنان كان هو الاعمق والابرز. فوراء كل ما يجري في لبنان من ارتباك وتباعد، سؤال لم تتفق الاجوبة عليه: كيف يكون التعامل مع التحدي الاسرائيلي؟

لقد حملت بعض الدول العربية المجاورة لإسرائيل مشكلتها مع التحدي الصهيوني بتغيير أنظمتها وإقبالها على اللباس العسكري انطلاقاً من مقولة قديمة «لا يفل الحديد إلا الحديد». ولكن لبنان الدولة والنظام لم يأخذ بهذا الخيار، فظلّ متمسكاً بنظامه الديمقراطي عن اقتناع بأنه يكون بذلك أقوى حجة في مخاطبة حكومات العالم المتقدم وشعوبه وأقدر على إقناعها بالحق العربي. ولا شك أن كل ما حدث في لبنان ويحدث هو وليد وجود جوابين في العقل اللبناني والضمير اللبناني لكيفية التعامل مع إسرائيل.

وقد جاءت الايام تثبت أنه بسبب هذا الهم السياسي المتكلم في لبنان بصوت عال، كان هذا الوطن قادراً على جعل نفسه دار إقامة ثانية للشعب الفلسطيني والكفاح الفلسطيني المسلّح، ففي لبنان على سبيل المثال، ازدهرت الحركة الوطنية الفلسطينية مع أبي عمار وصحبه، فبرزت فتح والجبهة الشعبية وغيرهما، وفي لبنان قامت اتصالات الفلسطينيين مع العالم، ولعله لولا هذه الفترة اللبنانية من حياة القضية الفلسطينية، لما أمكن أن يخاطب أبو عمار العالم من الامم المتحدة، بل لما أمكن أن يقتنع العرب أنفسهم بمساعدته علناً وجهاراً.

قد يكون النظام اللبناني لم يفد من بعض الوجوه اللبنانيين أنفسهم، ولكنه بالنسبة للعرب، شعوباً وحركات تحرير ودولاً وخصوصاً القضية الفلسطينية نفسها، فقد كان لبنان الساحة والمختبر والصوت، لا بل العضل أيضاً لهذه القضية. وقد أفادها ولكن هل أفاد نفسه؟ بل هل استطاع أن يجمع على موقف واحد في هذا الشأن؟

من لبنان سافر أبو عمار الى الامم المتحدة سفرته الفريدة والاكثر أهمية في نضال الفلسطينيين، بل إن غالبية القادة الفلسطينيين الصادقين كجورج حبش وغيره، عاشوا في لبنان بقدر ما عاشوا في فلسطين، وأخذوا منه كما أخذ منهم، واللبنانيون لا يقولون ذلك كمعطين للعروبة فقط، بل كآخذين منها أيضاً. فلبنان والعراق وفلسطين، هذه الساحات العربية كانت جميعاً وما تزال تلقى الدعم من العروبة ومن الرياض بالذات.

إن لبنان، خصوصاً على المدى التاريخي البعيد، كان صادقاً مع نفسه بالتمسك بنظامه الديمقراطي. صحيح أن هذا النظام جعله أحياناً ساحة مفتوحة لقوى عديدة مختلفة فيما بينها، متفقة في الوقت نفسه على عدم مراعاة ظروفه، إلا أنه أخذ بالمقابل الفخر وحس الاعتزاز بأنه كان المكان الذي لا يفرق أبناؤه بين قطر عربي وقطر آخر، ولا بين مسؤول ومعارض، ولا بين أهل عقيدة سياسية وأخرى، بل إنه يبقى في النهاية الاقرب بين كل إخوانه العرب لمناقسة الصورة التي تقدمها إسرائيل كاذبة عن ذاتها من حيث الشبه بالتقدم الغربي دون التخلي عن الهوية.

وما تواجهه إسرائيل في لبنان ليس وطنية المقاومة فقط، بل مدنيته القادرة على المنافسة أيضاً. وهاتان، وإن تواجهتا أحياناً فيما بينهما داخل لبنان وعلى لبنان كما نعرف، إلا أنهما تبقيان حقيقتين لبنانيتين محرجتين بل فاضحتين للوجود

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 07-10-2007 العـــدد : 14349
الصفحـات : 18 المسلسل : 139

الاسرائيلي المتضرر منهما معاً كما لم يتضرر في معركة له سابقة أو قائمة مع أي دولة عربية أخرى.

فلبنان كما كان يصوّره مفكرون منه، مسيحيون كميشال شيحا أو غير مسيحيين كعمر فاخوري، ما كان إلا الضد النوعي والحضاري، المسلم المسيحي والشرقي الغربي لإسرائيل.

إن لبنان قد أخذ بذلك أصعب المواقف وأدقها، إذ كرهته إسرائيل أكثر مما كرهت أي عربي آخر، ولم تتردد في احتلاله أيام العز الفلسطيني الاكبر في لبنان، في عهد أبي عمار، ولكن لبنان المؤمن لم يتخلَّ عن قضية العرب الكبرى ولم يساوم أحداً عليها، بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك، عندما لم يضق ذرعاً، بل سمح بوجود حزب الله بدوره المقاوم، متقبلاً المتاعب الناشئة عنه في النسيج السكاني اللبناني الدقيق والتعددي.

من هنا، شعور لبنان الوطن في هذه الايام الصعبة التي يمر بها أنه قد تفانى في خدمة القضية الفلسطينية حتى كاد يفنى بعد أن أورثت المقاومة الفلسطينية مقاومة لبنانية أيضاً قبلها لبنانيون كثيرون، وتخوّف منها بعضهم، خوفاً على وحدة الهوية اللبنانية التي باتت تعاني تفسخاً وطنياً داخلياً راح لبنانيون كثيرون يؤاخذون عليه لبنانيين آخرين، وظهر هذا التفسخ أوضح، حتى ترك بصماته الدامغة على شرائح لبنانية واسعة. والآن ها نحن أمام مناسبة انتخاب رئيس جديد، نعيش كشعب تحدياً وطنياً هو العمل وراء رئيس جديد على نفخ الحياة في هوية وطنية مهددة بأن تحتضر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

مهمة الرئيس القادم هي أولاً تعويم الشعور المتراجع بالهوية اللبنانية الواحدة التي أثقلتها الاهواء والغرائز والمصالح الخاصة للأفراد والاحزاب والأيدي الخارجية، ولا سيما التنظير الفئوي المبرمج الذي أنزل هذه الهوية من عليائها ووهجها وحطم وحدتها وجرّأ قوى الخارج والداخل عليها.

الهوية اللبنانية الواحدة، تلك المتخنة الناظمة المكينة في اللغة الدبلوماسية التقليدية للصيغة التعددية، المتألقة الثمينة في العقد العربي النظيم التي تطلعت إليها وتتطلع بحنان وإعجاب وإكبار أمة العرب من أقصاها الى أقصاها، تلك الصيغة، كم كان عليها أن تصمد وكم ارتكبت بحقها وما تزال إساءات من الداخل والخارج، ولا سيما من قوم هم الاكثرية في بلادنا، لا يعلمون ماذا يفعلون.

كان الاهم بين منجزات مؤتمر الطائف الشهير في زمانه حول القضية اللبنانية، ليس ما أنجزه لبنان لنفسه من لحمة، بل ما أطلقه في العالم العربي من رسالة تنظير وتعزيز صارخة بأهمية القضية اللبنانية بين قضايا العرب. من هنا، فكل سعي صادق يبني به لبنان نفسه بمعونة الغرب والمجتمع الدولي، هو إنجاز تفيد منه الامة، عربها ومسلموها خاصة بقدر ما يفيد منها لبنان بالذات وأكثر.

بعد الطائف، جاء مؤتمر باريس، وقد رعاه ولي العهد السعودي يومذاك الامير عبدالله بن عبدالعزيز، وكان ذلك التأكيد العربي والماثل بالأهمية الذي يعطيه قادة العرب، ولا سيما في المملكة، للقيامة اللبنانية الصعبة على طرف نقيض للاطماع الصهيونية التي كانت ولا تزال ترى فيه الخطر على مكانتها الدولية.

لمصر خاصة كان دور تاريخي قديم تعميري للهوية اللبنانية هو الأخر ذو فضل في زمانه، وذلك منذ العهد العثماني الخديوي، فالتاريخ يروي أن إبراهيم باشا المصري، ابن محمد علي، كان أول من أدرك حاجة التركيبة السكانية المختلطة في جبل لبنان للدعم والتطوير، وذلك من قبل قيام دولة لبنان الكبير بعد مجيء فرنسا الى المنطقة عقب الحرب العالمية الاولى، إذ عمد إبراهيم بن محمد علي الى إقرار المساواة بين أبناء الطائفة الدرزية المميزة في ذلك الحين ومسيحيي الجبل الاكثر عدداً فيه، وذلك للمرة الاولى في بلدة دير القمر، كبرى بلدات الشوف. وتقول الرواية التاريخية الموثقة، انه في اجتماع دعا إليه إبراهيم قائد الحملة المصرية حضره أهل المنطقة، توجّه الى

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 07-10-2007 العـــدد : 14349
الصفحـات : 18 المسلسل : 139

رجل من الحاضرين بقوله يا بك، فاعتبر أحد مشايخ الدروز نفسه هو المقصود، فأشار إليه الباشا بأنه ليس المقصود، فنهض آخر من دروز الجبل لتلبية النداء، ولكن ما لبث أيضاً أن فهم أنه ليس المقصود، ثمّ ثالث من وجوه الدروز فعل الشيء نفسه حتى اضطر إبراهيم باشا الى التسمية بالاسم، فنادى أحد الحاضرين من أهل الدير بـ«بحري بك»، وهكذا كانت كما يقول المؤرخون، تسمية أول مسيحي في جبل لبنان يلقب كان وقفاً حتى ذلك الزمن على فئة من طائفة ثانية هي الدروز.

حفظ المسيحيون من أهل جبل لبنان للباشا المصري بادرته نحوهم، ولم يعترض عليها سواهم من أهل البلاد، دروزاً أو غير دروز، وقد اعتبر كبير المؤرخين المرحوم الدكتور أسد رستم تلك الواقعة بداية لعصر لبناني لا يكون فيه لأبناء دين من أهل الجبل اللبناني امتياز على آخرين، أي نوع من الامتياز.

ولما جاء الانتداب الفرنسي على لبنان، كرس المؤرخون اللبنانيون الرسميون المعتمدون من قبل فرنسا كأسد رستم وفؤاد افرام البستانسي هذه الواقعة على أنها ولادة اجتماعية وسياسية للبنان، سابقة لمجيء الانتداب الذي تبنى التركيب الاجتماعي والسياسي نفسه الذي كان قد اعتمده أهل البلاد بإرادتهم الحرة ومباركة مصر الخارجة على سلطة اسطنبول.

هكذا ولدت الهوية اللبنانية الواحدة، إسلامية مسيحية، متوافقاً عليها بين أطرافها في الجبل اللبناني أولاً، ثمّ في كامل أراضي الجمهورية اللبنانية، ناصعة قاطعة بدون تفرقة ولا تمييز. ومن يستمع الى الزعيم وليد جنبلاط اليوم أو غيره من القادة، لا يخشى على لبنان من أن يكون قريباً من الزعزعة لا سمح الله أو مهدداً بالعواصف. فالرياح الوحيدة الخطرة على لبنان، هي التي تهب عليه من جواره الاسرائيلي، والتي يجمع اللبنانيون على اعتبارها مصدر الخطر الوحيد عليهم.

أما التحدي الاساسي والسلمي الذي يواجهه لبنان في عهد رئيس جديد، فهو التعمير السياسي للهوية الواحدة، ذلك الذي يرجوه اللبنانيون على أيدي ساسته وأحزابه الآن. فاللبنانيون ليسوا مختلفين على من يحاربون، فليس لهم إلا عدو واحد هو إسرائيل، وأهم ما يحتاجه لبنان هو التعمير السياسي المدني، وليس الوطني فحسب، ولذلك هو يعلق أهمية على المعركة السياسية القائمة فيه حول رئاسة الجمهورية المقبلة.

وهنا منعاً للالتباس وسوء الفهم، ليس المقصود بالتعمير السياسي قصر المهمة على شخص الرئيس وطلب الحكم واستمرار البقاء فيه بحجة العمل الايجابي، بل المقصود عيش العملية السياسية وأهدافها بصدق وعمق، سواءً في الحكم أو خارجه. فالسياسة هي أولاً سؤال في المطلوب والممكن، وحوار فيهما، يعطيه السياسي حياته مجتهداً عاملاً سعيداً بمرأى الحياة من حوله تتغيّر باتجاه الأفضل. وأسعد ما يسعد كبير أمة بقلة يشعر أنه حققها فيما حوله وفيمن حوله ومن هو بعيد، وكأن الأمة كبرت به وكبر بها، فاعتزّ به وسعد القريب والبعيد والقاصي والداني.

وما أحوجنا نحن في لبنان، وما أبعدنا أو أقربنا، والله أعلم، عن رئيس عارف قادر، مدني وليس وطنياً فقط. ينطلق منذ اليوم الاول بعملية التعمير السياسي المدني لوطن تعاون الداخل والخارج على إهانة، فكاد يتحول من وطن الرسالة الى وطن التفتيت والتناحر والتدافع.

إلا أن أطرف ما في لبنان من مفارقات، أنه في حين استأثرت واحدة من جبهتيه المتصارعتين بصرخة المقاومة للعدو الصهيوني، أطلقت الثانية صرخة المقاومة المدنية تدعو بها لتبطين الديمقراطية اللبنانية بالمحتوى المدني الحضاري، تاركةً لأختها أن تدعو للمقاومة.. في عصر اليونيفيل. وهكذا لا تكون خيانة وطنية ولا خيانة مدنية، بل تكونان كلتاهما معاً جناحين لوطن واحد حالم بالاستقلال والتقدم.